قصة اجتماعية

الأمير السعيد

للكاتب الانجليزى الكبير أوسكار وايلد

فى رابية مرتفعة من المدينة ، وعلى قاعدة عالية أشرق تمثال الأمير السعيد . وهو تمثال رائع غطى من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بغشاء من الذهب الخالص . وفى مكان العينين برقت ياقوتتان زرقاوان كما لمعت ياقوتة حمراء فى نصاب سيفه . ولقد كان هذا التمثال موضع إعجاب الجميع و حتى مهم . من ذلك أن أحد المستشارين مر عليه مرة وكان يود شهور بمظهر ذى الذوق الفنى السليم فقال : انه ليس مروحة الطاحونة الهوائية فى جماله ؛ غير أنه مفيد ما استدرك قائلا ، ولكنه أقل نفعا منها ؛ خشية أن يظن الناس أنه ليس عمليا فى تقديره .

ومن تعليقاتهم أن أما زجرت ابنها مرة لبكائه طلبا للقمر فقالت له (لم لا تكون مثل الأمير السعيد ؟ فانه لا يصرخ فى طلب شىء البتة) .

وفى أحد الأيام مر أمام التمثال رجل قانط من الحياة وما بها فتأمله مليا ثم قال (يسرنى أن فى هذا العالم شخصا اكتملت سعادته حتى سمى بهذا الاسم السعيد) .

أما الأطفال فكانوا اذا لمحوه أثناء انصرافهم من المدرسة ، تطلعوا نحوه متعجبين قائلين (انه مثل الملاك تماما) .

وذ سمعهم مرة أستاذ الرياضة ابيرى لهم قائلا :

— وكيف تعلمون ذلك وأنتم لم تروا ملاكا قط ؟

— ولكننا رأينا ملائكة فى أحلامنا .

فعبس الأستاذ حين سمع هذه الاجابة لأنه لم يستحسن أن يحلم الأطفال .

وفى احدى الليالى طار فوق المدينة عصفور صغير كان قد تركه زملاؤه وهاجروا الى مصر منذ ستة أسابيع . أما هو فتأخر لأنه كان مولعا بقصبة جميلة نامية على شاطىء النهر ، التقى بها فى أوائل الربيع حين كان يطارد فراشة كبيرة صفراء ، فراعه قوام هذه القصبة الرشيقة وتوقف عن مطاردته الفراشة ليتحدث اليها وإذ كان يحب إصابة الهدف مباشرة دون لف أو دوران سألها قائلا : (أتسمحين لى بأن أحبك؟) فانحنت القصبة قبيلا ، ومن ثم حوم حولها المرة بعد الأخرى وهو يلمس الماء بأطراف جناحيه فيثير فيه تموجات لجينيه خفيفة . كانت تلك الحركة هى طريقته فى الغزل وقد تتبعها طول الصيف .

أما باقى العصافير فلم يرقها ذلك وتناغت قائلة : (انه حب سخيف إذ أن القصبة فقيرة كما أنها كثيرة الاقرباء .

كانت هذه الملاحظة فى موضعها لأن شاطىء النهر ملىء بالقصبات . وإذ حل الخريف وهاجر جميع العصافير هذه البقعة شعر العصفور الصغير بالوحدة و لسأم و بتدأ حبه للقصبة يخمد ففكر فى نفسه " إنها لا تتحدث البتة و خشى أن تكون لعوب معجبة بنفسها إذ أنها تتمايل دائما أمام النسيم . وهى هادئة محبة لبيتها ولاشك غير أنى أميل إلى الأسفار ولابد من أن تكون زوجتى محبة للأسفار مثلى " . وأخيرا واجهها بالسؤال الخطير التالى مباشرة : " أتسافرين معى أيتها القصبة ؟ " .

فهزت القصبة رأسها دليلا على شدة تعلقها بوطنها فقال لها :

— إذن كنت تسخرين بى . أما الآن فانى سأطير إلى الهرم وأتركك فأستودعك الله .

وطار العصفور طول النهار حتى وصل إلى احدى المدن فى الليل بعد رحلة يتمايل فيها وهو يقول " أين أجد مكانا لسكناى ! أرجو أن تكون المدينة قد استعدت لقائى " .

ثم لما استقل القطار على القاعدة العالية فصرح مسرورا : (سأستريح على هذا التمثال فهو فى بقعة جميلة معرضة للنسيم العليل) .

وما لبث أن حط رحاله بين قدمى الأمير السعيد وتمتم قائلا (لقد حللت غرفة مذهبة) وهيأ نفسه للنوم ، ولكن لشدة دهشته سقطت عليه بعد قليل نقطة كبيرة من الماء حين كان يريح رأسه تحت جناحيه استعدادا للنوم فصرخ قائلا " يالالغرابة ! فالسماء صافية والنجوم لامعة براقة ولكنها تمطر . حقا إن الجو فظيع فى هذه البلاد ، نعم إن المطر كان محبوبا لدى القصبة الجميلة ولكن ذلك لم يكن إلا لأنانيتها وانرتها " .

ثم سقطت عليه نقطة ثانية فقال :

ما فائدة هذا التمثال إذا كان لا يقدر أن يحميني من لمطر ؟ فلا بحث عن مدخنة أمينة .

اعتزم العصفور الرحيل غير أنه قبل أن ينشر جناحيه لطير سقطت عليه نقطة ثالثة من الماء فرفع عينيه إلى فوق ورأى — ويالغرابة ما رأى ! — رأى عين الأمير السعيد مغرورقتين بالدموع ، بل إن الدموع كانت تسيل على وجنتيه المذهبتين . ومع ذلك فان وجهه بدا جميلا رائعا تحت ضوء القمر فأشفق العصفور عليه ، ورثى لحاله وواجهه قائلا :

— من أنت ؟

— أنى الأمير السعيد .

ولماذا تبكى إذا ؟ لقد أغرقتنى بدموعك !

— حين كنت انسانا وكان لى قلب بشرى لم أكن أعرف ماهى الدموع لأنى كنت أعيش فى قصرى المسمى "قصر المرح" حيثما يمنع الدخول على الأحزان . ففى أثناء النهار كنت ألعب مع رفاقى فى الحديقة وفى المساء افتتح الرقص فى القاعة الكبرى ، وكان يحيط

بالحديقة جدار مرتفع ، غير أنى لم أكلف نفسى يوما أن أسأل عما هناك وراء ذلك الجدار ، لأن كل ما حولى كان جميلا مسرا . وكانت حاشيتى تدعونى " الأمير السعيد " وسعيدا كنت حقا ، إذا ما سميت المسرات سعادة . وعلى هـذا النظام عشت طول حياتى . أما بعد موتى ووضعى فى هذا المكان المرتفع ، فانى أتبين جميع عيوب المدنية ومصائبها . ومع أن قلبى قد قدّ من الرصاص فانه يتفطر أسى مما رأى .

فاستغرب العصفور وقال : " ماذا ؟ أليس هـذا تمثالا من الذهب ؟ " ولكن أدبه لم يسمح له بابداء ملاحظته مسموعة . ثم استطرد التمثال قائلا :

— هناك بعيدا عن هذا المكان فى زقاق صغير من المدينـة يوجد بيت حقير فتحت احدى نوافذه ، ومن خلالها أرى امرأة مسكينة جالسة بجانب الطاولة وقد بدا على وجهها التحول والوهن ، وصارت يداها خشنتين من وخز الإبر إذ أنها خياطة . وهى تطرز الآن زهرة (الآلام) على فستان من الحرير لأحمل وصيفة من وصيفات الملكة ، وذلك لتلبسه فى حفلة الرقص المقبلة . وعلى فراش صغير بركن من الغرفة يرقد ابنها الصغير المحموم وهو يصرخ طالبا قليلا من البرتقال ، إلا أن والدته لا تملك أن تعطيه غير ماء النهر ، ولذا يواصل الصراخ ، فيا أيها العصفور الصغير ألا تنتزع الياقوتة التى فى نصاب سيفى وتحملها إليها ؟ فانى مقيد فى هذه القاعدة ولذا لا أتمكن من الحركة .

فأجاب العصفور قائلا :

ولكن أصـدقائى ينتظرونى بمصر وأنا مشتاق إلى اللحاق بهم . فهم يحومون الآن فوق نهر النيل ويتحدثون إلى أزهار اللوتس . وبعـد قليل سيأوون إلى قبر فرعون العظيم ليغفوا ليلتهم ، وسيجدون هناك الملك نفسه ملفوفا فى الكفن الأصـفر ومحنطا بالطيب والعطر ، وحول عنقه يتدلى عقد من الخرز الفستقى ، ويداه مثل الأوراق الذابلة .

فقال الأمير :

أيها العصفور ، أيها العصفور الصـغير ، ألا تبقى معى ليلة واحدة لتكون رسولى ؟ فالطفل فى اشد حالة من الظمأ ، والام فى أقصى درجة من الحزن .

ولكنى لا أحب الأولاد ، إذ أنه فى الصيف الماضى حين كنت بحوار النهر اعتدا ولدان قبيحان على أن يقذفونى بالحصى ، ومن الطبيعى أنهما لم يصيبانى لأننا ، معشر العصافير مشهورون بالطيران السريع فضـلا عن أن أسرتى مشهورة فى الطيران بنوع خاص ، غير أن سلوكهما كان دليلا على احتقارهما على كل حال .

أجاب العصفور بهذا ، غير أنه سرعان ما أسف لحزن الأمير المفرط فقال "إن الجو بارد جدا هنا ولكنى سابقى معك ليلة لأكون رسولك .

فشكر الأمير العصفور ، ثم انتزع لأخير الياقوتة الكبيرة من حسام الأمير وطار بها فوق المدينة . وفى طريقه مر بقصر الملك حيث سمع صوت الرقص ورأى فى الشرفة فتاة جميلة مع خطيبها الذى كان يقول "ما أبدع النجوم ؟ وما أعجب قوة الحب ؟" ثم أجابته بقولها "لقد أمرت خياطتى بأن تطرز ثوبى الجديد للحفلة الكبرى القادمة ولكنى أخشى ألا تنجزه فالخياطات كسولات .

طار العصفور فوق النهر ورأى المشاعل على سارية المراكب ، ومر بالسوق ورأى التجار اليهود يساومون بعضهم بعضا ، ورأى بعض الفقراء يموتون من الجوع ، وأخيرا وصل إلى البيت الحقير فتطلع إلى الداخل ورأى الولد يتقلب فى الفراش من أثر الحمى ، لأن قد عيها العناس من جراء التعب . فقفز إلى الشرفة ووضع الياقوتة على المائدة . ثم حام بجناحه فوق الغرفة مرفرفا بجناحيه على جبهة الطفل فسمع الطفل يقول : "ما ألطف النسيم . لا شك أن صحتى تتحسن" واستغرق فى النوم .

ثم رجع العصفور إلى الأمير السعيد وعرفه بما جرى واختتم حديثه بهذه العبارة :

ومن الغريب أنى أشعر بالدفء رغم شدة البرودة فى هذه البلاد .

فأجاب الأمير :

ذلك لأنك أتيت عملا حميدا .

أخذ العصفور يفكر فى هذه العبارة فما لبث أن استسلم للنوم من أثر التفكير كعادته .

وفى الصباح أخذ العصفور يتجول فى البقاع المجاورة ويزور ما بها من المعالم والآثار مسرورا فرحا وهو ينتظر بشوق رحيله إلى مصر فى المساء .

وعند إشراق القمر أقبل إلى الأمير قائلا :

أمعك رسالة تحملنيها إلى مصر ؟ فإنى سأمضى إليها توا .

فقال له الأمير :

أيها العصفور ، أيها العصفور الصغير ، ألا تبقى معى ليلة أخرى ؟ .

إن القوم ينتظرونى بمصر وسيطير رفاقى غدا إلى الشلال الثانى وسيرون الإله ممنون وهو يرصد النجوم بالليل ، ثم يصرخ فرحا إذ ينبزغ نجم الصباح .

فقال الأمير بصوت حنون :

أيها العصفور ، أيها العصفور الصغير ، إنى أرى فى أقصى المدينة رجلا فى علية منحنيا فوق مكتب مكدس بالأوراق ، وفى وعاء بجانبه باقة من أزهار البنفسج الذابلة . هذا الرجل له شعر بنى كث وشفتان حمراوان كالرمان وعينان واسعتان حالمتان ، وهو يجهد نفسه

حتى يخبر رواية للمخرج المسرحى غير أنه عاجز عن المضى فى الكتابة لهبوط البرد . وليست هناك نار فى المدفأة ، كما أن الجوع أضعفه .

فأجاب العصفور ، وكان فى الحقيقة طيب القلب :

لا بأس فى أن أبقى معك ليلة ثانية . فهل تريدنى أن أحمل اليه ياقوتة أخرى ؟

ياللأسف ليس لدى ياقوتة مثل تلك بل كل ما عندى هو عيناى وهما من الياقوت الأزرق لدى أحضر من الهند منذ آلاف السنين ، فانتزع احداهما وأحملها اليه ، حتى إذا ما باعها تمكن من شراء طعام ووقود ومن ثم تيسر له إتمام روايته .

أيها الأمير العزيز إن هذا ليتعذر على .

أيها العصفور ، أيها العصفور الصغير ، افعل ما أمرك به .

فانتزع العصفور عين الأمير وطار بها إلى غاية الأستذ ولم يجد مشقة فى الوصول إلى الداخل لأن السقف كان به ثقب تمكن من المرور خلاله . وإذ كان الرجل مسندا رأسه بين يديه لم يسمع صوت خفيف اجنحة الطائر ولذا لم يرفع رأسه ، بل انتلع الياقوتة على البفسج الذابل فصرخ فرحا " لقد بدأ القوم يقدرون مكانتى . فلاشك أن هذه الجوهرة من أحد المعجبين بى . وسيتسنى لى الآن أن أكمل روايتى " .

وفى اليوم التالى طار العصفور إلى الميناء وجلس على طرف سارية يراقب البحارة وهم يسحبون صناديق البضاعة من المركب ويصرخون .

منشدين "هيلاهوب . هيلاهب" فصرخ هو بأنشودته الخاصة "سأذهب الى مصر "ولكن أحدا لم يعره التفاتا . ولما بزغ القمر مضى الى الأمير السعيد يقول :

لقد أتيت لأودعك قبل رحيلى .

أيها العصفور ، أيها العصفور الصغير ، ألا تبقى معى ليلة أخرى ؟

لقد أقبل الشتاء وأوشك موسم هطول الثوج أن يحل ، أما فى مصر فالشمس دافئة على أشجار النخيل الخضراء . وزناق قد بدأوا يبنون أعشاشهم فى الحدائق حيث يراقبهم الحمام الأبيض الجميل ويناغيهم . فيا أيها الأمير العزيز ، يجب على أن أتركك الآن ولكنى لن أنساك بل سأحضر اليك فى الربيع القادم جوهرتين جميلتين عوضا عن الجوهرتين اللتين انتزعتهما منك . وستكون الياقوتة الحمراء أكثر احمرارا من الوردة الحمراء ، والياقوتة الزرقاء أشد زرقة من البحر العظيم .

فأجاب الأمير بقوله :

فى الوادى القريب أرى فتاة صغيرة تبيع الكبريت وقد سقط كبريتها فى الوحل فوقفت تبكى خوفا من والدها الذى سيضربها ضربا مبرحا متى رجعت الى البيت خالية الوفاض .

وهى فتاة فقيرة عارية القدمين والرأس ، فانتزع أيها العصفور عينى الثانية واحملها إليها حتى لا يضربها والدها .

فأجاب العصفور :

سأبقى معك ليلة ثانية ولكنى لن أنزع عينك والا أصبت بالعمى .

أيها العصفور ، أيها العصفور الصغير ، افعل ما آمرك به .

وهكذا اقتلع العصفور عين الأمير الثانية و نقض على الوادى حيث رمى الجوهرة فى يد الفتاة . فصرخت الأخيرة قائلة : "ما أجمل هذه الزجاجة" و جرت مسرورة الى البيت .

واذ رجع العصفور الى الأمير قال له :

انك أعمى الآن ولذا سأبقى معك طول العمر .

ولكن الأمير أجاب بقوله :

كلا أيها العصفور ، بل يجب عليك أن تطير الى مصر .

غير أن العصفور أصر على قراره ورقد عند قدمى الأمير . وفى اليوم التالى أراد أن يروح عن نفس الأمير فأخذ يقص عليه ما رأى فى رحلاته المختلفة ، فحكى له عن ضيور أبى قردان التى تقسم جماعاته فى صفوف على شاطئ النيل تصطاد السمك بمناقيرها ، وعن أبى هول الذى يعاصر العالم فى عمره و يعلم كل شيء وهو رابض فى الصحراء ، وعن التجار الذين يسيرون ببطء على جمالهم وهى تحمل العنبر وغيره من البضائع ، وعن ملك جبال القمر الذى يبدو أسود مثل الأبنوس و يعد قطعة كبيرة من البلور وعن الثعبان الأخضر الكبير الذى يعيش فى أعالى النخيل و يسد عليه عشرون كاهنا ليطعموه بالعسل المحلى ، وعن الأقزام الذين يعبرون البحيرات على أوراق الشجر الكبيرة والذين يشنون الحرب دائما على الفراش .

فقال له الأمير :

أيها العصفور العزيز ، انك تقص على أمورا عجيبة ، ولكن أعجب من هذا كله هو ما يقاسيه الرجال والنساء من الآلام . فليست هناك أعجوبة أعجب من البؤس . فطر فوق مدينتى يا عصفور وأخبرنى عما تراه هناك .

طار العصفور فوق المدينة فرأى الأغنياء يمرحون فى قصورهم الفاخرة حين يجلس الفقراء على أعتاب بيوتهم . طار فوق الأزقة المظلمة فرأى الأطفال الجائعين ذوى الوجوه الشاحبة يطلون على الشوارع القاتمة . وتحت كبرى صغير ارتمى طفلان أحدهما فى حضن الآخر ليتدفأ وكانا يشكوان البرد والجوع ، غير أن الحارس منعهما من البقاء فى مكانهما فهاما على وجههما تحت وابل من البرد والمطر .

فرجع العصفور وأخبر الأمير بما جرى فقال له الأمير :

اني مغطي قشرة خفيفة من الذهب فاخلعها من على جسمي ورقة ورقة واعطها للفقراء ، فالأحياء يظنون دائما أن الذهب يجلب لهم السعادة .

فنزع العصفور غشاء الذهب من على الأمير حتى بدا الأخير رماديا قبيحا ، وحمل الذهب الى الفقراء ، فاخضرت وجنات الأطفال الصغار وصاروا يلعبون ويمرحون في الشوارع مسرورين ، ثم هطل الثلج والصقيع فغطيت الأرض بطبقة جليدية براقة ، وتدلى الجليد من سقوف البيوت ، فشعر القوم بهمومهم ، لأطفال أرضيتهم القرمزية وخرجوا ليتزحلقوا فوق الجليد .

أما العصفور الصغير فرغم اشتداد البرد عليه لم يرض أن يترك الأمير لأنه أحبه حبا جما ، واكتفى بالتقاط الفتات من عند باب الخبازين لايكون الخباز ملتفتا اليه ، ويتدفئ نفسه برفرفة جناحيه . غير أن الضعف اشتد عليه أخيرا فأدرك أنه مائت لا محالة ولم تبق لديه قوة إلا لكي يطير لآخر مرة الى كتف الأمير ليحدثه مرة قبل وفاته فتمتم قائلا " ستودعك الله أيها الأمير العزيز . أتسمح لي بأن أقبل يدك ؟ " .

أجاب الأمير :

يسرني أنك عزمت أخيرا الرحيل الى مصر يا عصفور الصغير ، لأنك مكثت معي طويلا . ثم فمي ولكن قبل شفتي لاني لأني أحبك .

وأجاب العصفور :

لست ذاهبا الى مصر بل الى مأوى الى بيت الميتين ، الموت أخو النوم . أليس كذلك ؟

ثم قبل فم الأمير السعيد وخر ميتا عند قدميه .

وفي تلك اللحظة سمعت طقطقة غريبة داخل التمثال كأن شيئا قد انكسر . ذلك لأن القلب الرصاصي انشق الى نصفين ، فلقد كان الصقيع باردا للغاية .

وفي صباح اليوم التالي مر عمدة المدينة مع حاشية من حكامها بالميدان الذي التمثال في وسطه ، ولما رأى التمثال صاح قائلا : " ما أقبح التمثال ! "

فردد الجميع عبارته : " حقا ما أقبحه ! " .

ثم استطرد العمدة قائلا :

لقد سقطت الياقوتة من سيفه وبهتت عيناه وانمحى الذهب من على جسمه ، حتى صار شبيها بشحاذ .

فردد الجميع : " نعم صار شبيها بشحاذ " .

ثم قال العمدة :

وها هو طائر مائت عند قدميه . يجب علينا أن نصدر قرارا بعدم السماح للطيور بأن تموت فى هذا المكان .

فدون الكاتب هذه الملاحظة . ثم أزاح الحكام التمثال من مكانه بعد أن فاه أستاذ الفنون بالجامعة بما يلى :

بما أنه لم يعد جميلا فهو لم يعد مفيدا .

و بعد أن أذابوا التمثال عقد العمدة اجتماعا للنظر فيما يجب عمله بمعدنه المصهور ، وابتدأ المناقشة بقوله :

يجب أن نقيم تمثالا مكانه ، ولا بد أن يكون تمثالا لى .

فصرخ كل من أعضاء المجلس قائلا " بل تمثالا لى " .

فاحتدم الجدال والشجار بينهم .

وكان آخر عهدى بهم تركتهم يتشاجرون .

أما صاحب مسبك المعادن فاذ أشرف على اذابة التمثال أبدى استغرابه من ظاهرة عجيبة قائلا : " يالله العجب ان هذا القلب المتكسر لم يذب فى الفرن ، فلنلقه بعيدا إذا " فنقلوا القلب فوق الكومة التى كان العصفور قد سقط عليها .

وفى أحد الأيام أرسل الله ، جل شأنه ، ملاكه الى الأرض وقال له :

احضر لى أثمن شيئين من هذه المدينة .

فذهب الملاك الى المدينة ورجع بقلب الأمير و بالطائر الميت .

فأجاب الله تعالى :

حسنا فعلت ، فان هذا العصفور سيفرد فى فردوسى الى الأبد ، وهذا الأمير السعيد سيبحنى طول العمر فى مدينتى الذهبية .

الطوبجى ٩/٦٦-١٩٤٤-٣٤٠٠